أزهار تنمو في الصقيع

- أمي.

- نعم.

- متى يعود أبي..؟.

دوى صمت ثقيل، وذكرى بَرَقَتْ في أفق الذاكرة المرهقة، فاكتوى منها القلب المحترق. صمتٌ وحيرة ولا جواب حاضر الآن، انقضتْ البرهة إثر الأخرى حتى ولِدَتْ فكرة بسيطة، فكانتْ كطوق نجاة من حيرة الجواب، فقالها اللسان متلعثماً:

- في الربيع، حبيبتي.

- لماذا في الربيع..؟.

- لأن الربيع سيأتي بعد شتاء طويل.

- متى يعود أبي..؟.

- سارة حبيبتي، عندما تكبرين ستعرفين كل شيء.

- و أبي..؟.

-كفى، سيرحل الشتاء مع صقيعه يوماً، وسيأتي بعده الربيع وأزهاره، وسيعود والدك.

لم تجب سارة الصغيرة، بل حدقّت بعينيها البراقتين في وجه أمها، وشتى التساؤلات تراقصتْ في مخيلتها الصغيرة لولا أن شغلتها عنها دمعة قد تسللتْ من عين أمها، رفعتْ

يدها الصغيرة ومسحتها، فابتسمتْ الأم وضمتها إلى صدرها، قالت سارة:

- لا تحزني يا أمي، سيعود أبي في ربيع ما.

قالت الأم :

- آمل ذلك.

بَسَطَتْ سارة كفيها الصغيرين وقالت:

- يا ربي، من أجل أبي دع الشتاء يرحل بصقيعه والربيع يأتي بأزهاره، لكن يا أمي متى يأتي الربيع..؟، ومتى رحل عنا..؟.

مسحت الأم بكفها رأس الصغيرة، وقالت بصوت خافت كمن يروي حكاية ما قبل النوم لها:

- كل أيامنا كانت ربيعاً، لكنه في ليلة ظلماء غادر إلى أقبية الأرض، تأخّر، انتظرناه طويلاً، وحلَّ الصقيع مكانه فجمّد أرواحنا وأمات قلوبنا، انتظرناه أياماً، سنيناً ولم يعد، ولم نعد نسأل عنه، وأصبحنا نخشى حتى السؤال، ذهب ولن يعود.

هتفت سارة :

- وأبي..؟.

قالت الأم :

- سيعود صغيرتي، سيعود في يوم ما.

- متى..؟.

- قلتُ لك في الربيع..

****

تتالت الأيام ثقيلة.

وعندما تظهر الزهور الرقيقة في ركن من حديقة المنزل كانتْ سارة تجلس بقربها، تناجيها، تلاعبها بأصابعها الغضة وتسألها بعذوبة:

- الربيع أتى بك كما تقول أمي، فأين أبي..؟.

تهزها لتلقى جواباً فلا تسمع منها أي صوت، تبكي وتركض إلى أمها شاكية:

- الزهور نَمَتْ يا أمي في الحديقة والربيع أتى وأبي لم يعد بعد.

تقبلها الأم وتقول لها:

- عندما تكبرين ستحدثك الزهور عنه، وستقول لك متى سيعود، فقط عندما تكبرين.

****

وتتالت السنون.

عشقت سارة الزهور، وتغلغل رحيق حبها في ثنايا فؤادها الواثب وقلبها المترع بالحياة والشباب. جعلت من ركنِ الحديقة ذاك عالمها الزاخر بالخيالات والأحلام والأمل، وباتَ الربيع عندها هو الحبيب والمبتغى والمشتهى والمرتقب الذي كانت تناجيه كل يوم بلوعة وشوق. لم تعد تسأل أمها منذ زمن طويل، ولم تعد تناجي أزهارها وتهزها وتسألها عن الربيع،

ولم تجد أبلغ من الصمت لغة لتخاطب به حبيبها الغائب وزهورها النضرة.

وكل عام كانت تحتفل بأزهارها بطقوس تعنيها هي وحدها، تعتني بها، ترويها وتحميها من العابثين وتزيل من حولها ما يعيق نموها نحو ضياء الشمس، وكانت تجلس بقربها لساعات وساعات طوال، وتحادثها بصمتها آلاف الأحاديث. تخصبتْ أحلامها معها حتى كبرت وعمّت أرجاء الكون، حيث فرشته بالأزهار التي تحب، وأغرقت أقبيته المظلمة رحيقاً طيباً وحياة لا موت بعدها.

وكانت في كل حلم تحلمه تنادي الربيع الغائب والربيع الدائم الذي سيعيد لها والدها، ذاك الذي مازالت تحتفظ له في ذاكرتها بآخر مشهد رأته فيه قبل زمن طويل مضى:

في ليلة عاصفة، عنيفة رياحها وغزير مطرها ورعدها يصم الآذان وبرقها يضيء الأفق، بدا الموقف يقطر رعباً ساعة أن اختبأت في حضن أمها مذعورة تضم لعبتها إلى صدرها عندما اقتحم البيت بعض الرجال كالشياطين كانوا، وساقوا والدها أمامهم.

مازالت سارة تعتني بزهورها وركن حديقتها، ومازالت تنتظر الربيع بلهفة كلهفة لقاء حبيب غائب، ومازالت تنتظر عودة أبيها.